تمهيد

الصفويون والدولة الصفوية في إيران

نشأة الصفوية :

ينسب الصفويون إلى صفي الدين الأوريلي (في بلاد الديلم) وكان هو ووالده على المذهب الشافعي. درس القرآن والسنة ثم انخرط في حلقات الصوفية خاصة حلقة الشيخ (فرج الأرويلي) وأهم ما تعلمه هو كيفية جلب المريدين وتنظيمهم وقد اعتكف زاهدا في جبل (سبلان) ولكنه فيما يبدو لم ينجح فغادر المكان إلى شيراز منظما إلى زاوية صوفية أيضا تسمى زاوية عبدالله بن الخفيف الشيرازي. وفي نفس الوقت انضم في خدمة شيخ صوفي اسمه مير عبدالله الفارس. ثم عاد إلى اردبيل محاولاً انشاء مشيخة باسمه لكنه لم يفلح فغادرها إلى جيلان وهي قريبة من اردبيل وكان ذلك سنة ١٢٧٦م وسكن قرية هليه كسران واعتكف في زاوية الشيخ زاهد الجيلاني الذي تمتع بحماية غازان خان المغولي حفيد جنكيز خان المعروف والذي كان يدعو إلى خضوع الإيرانيين لحكم المغول. وتزوج صفي الدين من ابنة شيخه زاهد فجعله مريدا له وخليفة وبعد وفاة شيخه سنة ١٣٠٠م رجع إلى اردبيل

حاملاً لواء الدعوة بالمعروف والنهي عن المنكرز كما اتجه صفي الدين في زاويته الصوفية إلى طريقة السماع والتغني والرقص الصوفي على الأنغام مما جلب له المريدين من الشباب الذي كان يشيع بينهم مبدأ التصوف القائم على فكرة الجبر أي أن الإنسان مجبر على سلوك الطريق ويجب عليه تقبل ما يأتيه وهذا كان يخدم سلطة حكام المغول السياسية في هذه المنطقة في القرن السابع الهجري ولذا فقد شجع هؤلاء الساسة انتشار الحركات والزوايا الصوفية خدمة لأغراضهم.

زاوية الشيخ صفي الدين في اردبيل وجدت الاهتمام الأكبر وخاصة عند خواجة رشيد الدين فضل الله وزير السلطان المغولي غازان خان. كان رشيد من يهود همذان وكان يملك دكانا للعطارة والأعشاب وعن طريق ادعاء التطبيب توصل لخدمة السلطان حتى عينه وزيرا بعد أن أسلم. ونقل عنه ممارسة أنشطة دينية لأنه كان على معرفة بالتوراة. واستولى على الأراضي الزراعية وقسمها بين أولاده. وسعى خواجه رشيد إلى كسب تأييد شيوخ الزوايا الصوفية وخاصة الشيخ صفي الدين الأردبلي الذي حظي من الوزير رشيد بالعطايا الوفيرة التي مكنته من الانفاق على زاويته ومريديه من الفقراء والمتطلعين للشهرة.

وبعد وفاة الشيخ صفي الدين سنة ١٣٣٤م قام ابنه صدر الدين مكان ابيه في رآسة الزاوية وكان ذلك في مقدمة حكم السلطان الاليخانيين من المغول. وفي سنة ١٣٨٧م دخل الأمير تيمور فاحاً لاذربيجان بعد أن أخضع أقاليم إيران لحكمه بالقوة والقهر ونهب الأموال تقدم إلى زاوية الشيخ صدرالدين بالهدايا واظهر له المحبة فبادله الشيخ بمثل ذلك وبارك أعماله وفتوحاته.

وفي سنة ١٣٩٩م غزا السلطان تيمور بلاد الأناضول (تركيا) واخضعها لحكمه وجلب معه الكثير من الشباب واهداهم إلى زاوية الشيخ صدر الدين في اردبيل حيث يقام على تدريسهم وتعليمهم وهؤلاء أصبحوا فيما بعد نواة ما يسمى القزلباش أي أصحاب القبات الحمر.

وفي سنة ١٤٤٧م حصل خلاف بين أولاد الشيخ صفي الدين على رآسة الزاوية المهمة تلك في اردبيل وما قدره من أموال فكانت الغلبة لجعفر الابن الأكبر وهرب الجنيد من أخيه متجها إلى الأناضول ومعه أولئك الشباب التنار من القزلباش وفي الأناضول أقام الشيخ الجنيد زاويته الصفوية من أولئك التنار في بيئة كانت تتشيع للأسلاف.

عقيدة القزلباش:

في منتصف القرن السابع الهجري ظهر في الأناضول شيخ صوفي اسمه حاجي بكتاش (توفي سنة ١٣٣٧م) يدعو إلى الجهاد وأنه سينصر بالرعب فاجتمع له الكثير من التنار والأتراك بهذا القصد أو بقصد السلب والنهب واتجه أولي الأمر لمهاجمة القرى المسيحية بعد أن ضعفت سلطة الدولة البنزنطية الشرفية في هذه الأجزاء. ونشر مريدي الشيخ طريقته الصوفية في الأناضول عن طريق تكوين الزوايا الصوفية وأصبح الجميع يتبعون الطريقة البكناشية. وبرز من بين هؤلاء البكتاسنية الشيخ بدر الدين الذي اتسع نفوذه فأصبح قاضيا في عسكره وزاويته الصوفية المجاهدة وتجول في عدة مناطق طالباً للعلم. تعلم في الاسكندرون ودخل في مذهب ما يسمى بأهل الحق وهم شيعة متطرفون يؤلهون الإمام علي رضي الله عنه. ولما عرف السلطان

العثماني توجهات هذا الشيخ عزله ولكن اثنين من تلامذته نشرا مذهبه ونفي الشيخ بدر الدين بمدينة أزنيك وفيها قام بتأليف كتابه: (الواردات) الذي احتوى على جملة من خليط بين أفكار صوفية تدين بوحدة الوجود وأفكار غلاة الشيعة (أهل الحق). وعبادة الأجداد عند التتار القدامىز وكان يعتقد في نفسه حلول روح الله فيه وأنه معصوم وأنه واجب الطاعة. واستطاع أن يحرف الكتاب وينقل إليه هذه الأفكار الغالية ودعا اتباعه إلى الجهاد باسم الدين ووجوب طاعته لأنه الولي المطاع مثل ولاية الإمام علي رضي الله عنه!

فكثر مريدوه وانتشر مذهبه فكان هذا المذهب هو الخمير لجيش القزلباش الذي زحف في هذه المنطقة على إيران وكون الدولة الصفوية.

قام بدر الدين يجمع أنصاره والثورة على الدولة العثمانية فساعده في ذلك الشيعة البكناشية ولكن هذه الثورة قمعت وحوكم الشيخ بدرالدين واعدم رغم مشاركة كثير من اليهود والمسيحيين له في هذه الثورة[1]. وطاردت الدولة العثمانية مريديه فاتجهوا إلى إخفاء عقائدهم في ظل النخبة وأصبح عداء السنة هو دينهم وهدفهم.

وجد الشيخ الجنيد ابن الشيخ صفي الدين الردبلي والذي إن قلنا أنه انتقل مع القزلباش من أردبيل إلى الأناضول وجد في مريدي اليخ بدرالدين السالف بغيته لتنظيمهم وضمهم إلى صفوف المرشدين البكتاشيين فاتحدت تلك القوى خاصة عندما تجمعت في الاسكندرون مع خميرة (أهل الحق) الشيعة والغالية. وادعى هذا الشيخ الربوبية وأنه من آل علي بن أبي طالب واستكمل الفرائض الشرعية عن مريديه ولذا فلا غرابة أن يرى الباحث فيما بعد كيف أن الشاه اسماعيل الصفوي وهو حفيد الشيخ الجنيد قد ادعى بنفس

تلك الدعاوي الباطلة. وطردت الدولة الجنيد الاسكندون وتنقل من أماكن عدة مع مريديه حتى استقر الحال في ديار بكر. ثم بدأ يهاجم بجيش مريديه الجراكسة السيح بادعاء الجهاد واكتسح داغستان وبعض اذربيجان. ولكن الجنيد قتل في هجومه على شروان وتفرق مريدوه ولكنهم تجمعوا مرة أخرى على زعامة ابن الجنيد المسمى حيدر وهو طفل بمعونة من السلطان اوزون حسن في حزجان لأنه ابن ابنته من الجنيد وذلك بقصد الاستفادة من مريدي الجنيد وتم له ذلك حين استولى على أقاليم في شمال شرق إيران واستقر في هراة ولقب نفسه ملك إيران وكان على مذهب الشيعة الزيدية. وبقوة من هذا السلطان نصب الشيخ حيدر هذا وهو ابن تسع عشر سنة شيخا على زاوية صفي الدين في أردبيل وتحلق حوله أولئك المريدين التتار من شتى النحل الإباحية الجهادية المعتمدة على السلب والنهب موجها الشلطان حسن كما يريد وبالمقابل ترك للشيخ حيدر حرية كاملة في التصرف في أردبيل وحكمها إلى درجة تصنيع السلاح والاستعداد لاكتساح الأقاليم الأخرى خاصة بعد وفاة السلطان حسن هذا سنة ١٤٧٨م. وهكذا كون الشيخ حيدر هذا جيشه من القزلباش وكانوا يخفون عقائدهم الشيعية المغالية عن طريق التقية.

بعد وفاة السلطان حسن تغلب ابنه يعقوب على حكم البلاد وبدهاء شديد استقل حيدر هذا السلطان فأخذ يبسط نفوذه في اذربيجان ويقتل السنة وشيوخ الشريعة بدعوى خلافهم مع السلطان يعقوب. وأمر الشيخ حيدر مريديه وجيوشه بلبس القلنسوة الحمراء باثنى عشر (القزلباش). لتمييزهم عن غيرهم ودربهم على القسوة والشدة وصناعة السلاح والبطش الشديد بالخصم. فما كان من هذه السياسة إلا الاصطدام أخيرا بجيش السلطان يعقوب نفسه وفي معركة فاصلة قتل فيها الشيخ حيدر وتفرق القزلباش.

ودخلت أقاليم غرب إيران في صراعات بينها في هذه الفترة انتهت بانتصار رستم بيك الذي أعاد نفوذ القزلباش التتار من الأناضول وأحيا زاوية الشيخ حيدر في اردبيل وأعاد نفوذ القزلباش السابق لهذه المنطقة رغبة من في استعمالها لتأييد وبسط نفوذه. وقام بتنصيب الشيخ علي الابن الأكبر لحيدر على الزاوية تلك وأعاد إليه ممتلكات وأوقاف تلك الزاوية.

ولكن القزلباش بعد استشراء أمرهم عادوا لقتال السنة والتصلط على علمائهم فما كان من أمر علي إلا أن قتل في هزيمة مع القزلباش الذين أخذوا أولاد حيدر إبراهيم وإسماعيل وأخفوهما في مكان آمن. ثم سلموا اسماعيل إلى كاركيا ميرزا علي حاكم لاهيجان وكان زيدي المذهب ومن هنا نشأ الطفل إسماعيل.

الشاه إسماعيل والقزلباش:

ولد إسماعيل بن حيدر في أردبيل سنة ١٤٨٧م وأمه هي ابنة السلطان اوزون حسن المذكور سابقا. وتعلم اسماعيل وهو ابن السابعة المذهب الشيعي الزيدي أولاً من الخيط المختفي فيه. ثم قام جملة من شيوخ القزلباش بتعليم إسماعيل أسرار المذه الشيعي المغالي ولقبوه بالشاه أي شيخ الطريقة أو السلطان. وكان معلموه السبعة كلهم من التتر من أصول أناضوليه. وقام القزلباش باضفاء الصفات الكاملة على إسماعيل وعلى كونه (المرشد). ونفخوا فيه روح الانتقام لأبيه وجده الذي قتلوه أهل السنة. وصدقهم في هذه التربية فظن في نفسه العظمة وغرسوا في ذهن هذا الشاب الحقد والكراهية ضد السنة وأن أهله ظلموا كما ظلم الإمام الحسين عليه السلام وادخلوا في ذهنه وروعه أن كل سني ما هو إلا ظالم أو سفاح يجب الانتقام منه والحذر منه.

نقل المعلمون السبعة إسماعيل من مدينة لاهيجان إلى أردبيل بحجة زيارة قبر الشيخ صفي الدين جه ومن هنا بدأ بالدعوة ومناداة القزلباش من الأناضول وغيرها بالتوافد عليهم واصبح لاسماعيل مسكن يضم آلاف القزلباش الذين اتخذوا تجمعهم شكل سياحة صوفية دينية فاسماعيل اعتبر وريث شيخ طريقة يجتمع حوله المريدون وهو أمر شائع قد لا يثير الأهداف السياسية المخبأة وأن غالبية هؤلاء القزلباش هم من التتار من صحارى الأناضول ومن قبائل شتى.

قام القزلباش هؤلاء بالنهب والسلب للقرى المحيطة بهم ثم اتسع عملهم إلى الأقاليم القريبة وبدأ باذربيجان وباكو... واسقطوا حكم شروانشاه سنة ١٥٠٠م ثم سيطروا على تبريز ومن حولها وسكان هذه المنطقة من السنة الشافعية يتحدثون اللغة الآذارية. ولكن الشاه اسماعيل اجبرهم على اعتناق مذهب الشيعة بسبب ما ربي عليه من كراهية للسنة منذ طفولته من قبل أمه ثم من قبل المحيطين به.

لقد اشبع اسماعيل منذ طفولته وشبابه كراهية السنة ولقن جميع أدبيات الشيعة القديمة التي ذكرت في كتب الشيعة حول كراهية قتلة الحسين وعلي بن أبي طالب وكراهية الصحابة والخلفاء الراشدين. وكان يطلب من السنة في المساجد التبرء من أبي بكر وعمر وعثمان وإلا قتل السني من قبل القزلباش.

وقد تنظم في المدن الذي استولى عليها اسماعيل فرق ما يسمى بالدعوة إلى البراءة من أهل السنة وأعمال القتل يمن يرفض ذلك ساعد في ذلك أصحاب الأهواء والمجرمون الذي وجدوها فرصة للنهب والسلب. واتجه العقد والقتل على على علماء السنة وهدم مدارسهم ومساجدهم أو تغييرها إلى

الشكل المناسب لفكرهم المنحرف. وانهال كثير من التتار واصحاب المطامع على اسماعيل والتحقوا بأعماله المشينة وادعوا أنهم (أصحاب الحق) فسلبت أموال السنة بدأ في اذربيجان واردبيل وما حولها من مناطق ثم اتسع الخرق شيئا فشيئا وقاموا بسبي شباب السنة ونسائهم على اعتبار أنهم كفار واجبروهم على شراء أنفسهم أو بيعها كرقيق. ومن لم يتبرأ من السنة ويعتنق التشيع فمصيره القتل[٢].

وبدا تساقط المدن والاقاليم ابتداء من اصفهان وكرمان وقم وكاشان و... ولم يستعصي الأمر على اسماعيل الصفوي غير كردستان (من إيران) فكانت جبال عصيبة قتل فيها القادة الذين أرسلهم الشاه إسماعيل ولم ينتشر فيها التشيع الصفوي وساعدته بعدئذ الدولة العثمانية لحمايتهم مما عزز انفصال هذا الجزء من كردستان عن إيران.

وفي سنة ١٥٠٨م هاجم الشاه إسماعيل العراق وكان تحت حكم باريك بيك الذي هرب إلى دولة المماليك في الشام واعمل القزلباش السيف بأهل بغداد وخاصة السنة وعلمائهم وهدموا جامع الإمام أبو حنيفة الذي سبق وأن بناه السلاحقة وتركز حقدهم في بغداد وباقي المدن الرئيسية واحتل القزلباش خراسان ثم هراة واعملوا فيها السيف وطلبوا كالعادة من السنة البراءة من الصحابة ومن لم يستجب خاصة من العلماء يقطع جسده أو يحرق كما فعلوا بالعلامة التفتزاني الحنفي المشهور بعلمه وورعه فقد جيئ به من السجن وطلب منه إسماعيل الفتيا بكفر أبي بكر وعمر وعثمان فأبى ذلك فامر القزلباش بتقطيعه وحرقه وهكذا فعلوا بالكثير من علماء السنة في المدن الرئيسية الإيرانية واخضعوا إيران بالإرهاب والرعب من شنائهم.[٣]

كان الإيرانيون يطلقون على العربي (السيد) ويطلق على غيرهم بـ (الموالي) وكانوا يعتبرون الشاة اسماعيل سيدا من آل علي بن أبي طالب ويبدو أن هذه النظرة استمرت عن الإيرانيين حيث يعتبر إلى اليوم أن رجال الدين الشيعة هم من العرب اصلا وأن البلاغ العصبي الديني جائهم من العرب.

بعد أن خضعت أكثر الأقاليم الغيرانية للشاه اسماعيل الشاب وكان عمره آنئذ اثنان وعشر سنة اتجه إلى حياة اللهو والشراب والصيد وكانت الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد مهادنة لاسماعيل الذي نعم بالرخاء حينما دب النزاع بين أبناء السلطان بايزيد على السلطنة وتحرك البكناش الشيعة من بلاد الأناضول موالين للقزلباش وللشاه اسماعيل ولكن حينما استقرت السلطنة العثمانية للابن بايزيد سليم اتجه في جيش عثماني كبير معهم البنادق والمدفعية وهو أم لا يعرفه جيش الشاه إسماعيل ودخل الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم نفسه إيران سنة ١٥١٤م والتقى الجيشان عند تشالديران هزم الشاه اسماعيل وقزلباشه وجرح اسماعيل واختفى في حفرة متظاهراً بالموت وقدم أحد جنوده الذين يشبهونه بلبس ملابسه وتقدم للسلطان سليم مسلماً نفسه وأنه هو الشاه اسماعيل. ويبدو أن السلطان سليم خدع وأمر بسجن هذا الرجل على أساس أنه أسماعيل. ولكن اسماعيل بعد أن جن الليل هرب بعيدا ولجأ إلى غار في جبل قرب همذان واعتلت صحته ووهن عزمه بعد مقتل معاونيه ورجاله وتفرقهم عنه كل يطلب النجاة والكثير قتل في هذه المعركة. ودخل السلطان سليم تبريز وطهرها مما بقي من القزلباش وظن السلطان العثماني أن مهمته في القضاء على الشاه اسماعيل وقزلباشه قد انتهت وأن التشيع قد دحر في إيران فرحل عائداً إلى بلاده واستقر مدة

في اماسيه ولي كن في إيران سلطه مرشحه لحكمها حيث شتت القزلباش وقتلوا رجالها ومن هذه الثغرة استعاد القزلباش نفوذهم شيئا فشيئا وعاد الشاه اسماعيل إلى تبريز مع بعض أنصاره وقام بالوقيعة مرة أخرى بكل من ساعد السلطان سليم على إعادة التسنين لتبريز وفوض الأمر إلى ميزا حسين الاصفهاني الذي اصبح هو المتصرف بأمره ولم يعد الشاه اسماعيل يهتم بسياسة البلاد والعباد وانكب على المتعة والشراب وأخذ اسماعيل في الكتابة إلى السلطان سليم مستعطفا ايه وخاضعا له في وقت كان سليم يفكر في غزو اوروبا واستعادة الأندلس.

وكاتب الشاه اسماعيل شارل الخامس امبراطور اسبانيا والمانيا وهولندا وجزءا من ايطاليا على التحالف ضد الدولة العثمانية وقيل أن الرسالة حملها القسيس بطرس الماروني أصله من جبل عامل بلبنان.(٤)

وبدل الاستعداد من قبل السلطان سليم لغزو اوروبا نحو اخضاع الشام ومصر لحكمه خشية تآمرهم مع الشاه اسماعيل عليه وبعد أن نجحت حملته تلك اتجه سنة ١٥٢٠م إلى غزو إيران مرة أخرى لاسقاط الشاه اسماعيل ولكن لما وصل مرض ومات وأما الشاه اسماعيل فقد كان منكبا على الخمر وبعيد عن تسيير أمور الدولة وتركها إلى من فوضه بإدارتها وضعفت إلى أن توفي عن سبع وثلاثين سنة أي سنة ١٥٢٤م. قام القزلباش بتنصيب ابن اسماعيل البالغ عشر سنين الملك وتولى القزلباش إدارة أمور الدولة فجلبوا في هذا العهد الفقهاء الشيعة اللبنانيون من جبل عامل إلى إيران حيث تولوا تنضيد التأسيس بشكل عقائدي ديني مغالي جداً يشف عن ذلك ما قاموا بكتابته من مؤلفات في هذا العهد من أمثال المغلا محمد باقر المجلسي.

أما في تركيا فقد جاء السلطان سليمان القاقوني بعد أبيه وكانت سياسته مهادنة إيران حيث أطلق سجناء القزلباش وأعادهم إلى إيران سنة ١٥٢٠م. واتجه إلى تنظيم جيشه لغزو أوربا وخاصة بلقراد.

وفي سنة ١٥٣٢م توجه سليمان القانوني بجيش لمحاربة القزلباش في إيران فضم اذربيجان ودخل تبريز واخضع هذا الجزء للدولة العثمانية وهرب القزلباش بطهماسب إلى قزوين بعيدا فرجع السلطان سليمان من همدان إلى بغداد مطهرا تلك الأراضي من أمصار القزلباش.

وقد دخل فقهاء الشيعة القادمين من لبنان إلى الصفويين الارث الشيعي القديم وطوروا البعض منه تحت عوامل مسيحية كانوا قد اقتبسوها من مسيحين لبنان. فقد ادخلوا موضوع البراءة الناشيء من تسميتهم بالروافض فهم يرفضون ولاية أبي بكر وعمر وعثمان ويتبرأون منهم. ولذا فقد نشأة في العهد الصفوي جماعات البراءة التي تجوب الحارات والمدن لحث الناس على البراءة تلك أو تعريضهم للقتل لأن رفضهم علامة للسنة.